الاستكشاف اللغوي في شعر الشيخ محمد الناصر كبر الصنهاجي: دراسة أسلوبيّة نقديّة

الدكتور أبوبكر عبدالله صلاتي[١]
الدكتور مجتبى بتوري يوسف[٢]

الملخّص

ليس من أدنى شكّ أنّ الشيخ محمد الناصر كبر يعدّ بحقّ علما من أعلام اللغة والأدب في نيجيريا في القرن العشرين، حيث أسهم إسهاما فعّالا بإنتاجاته الأدبيّة وبخاصّة الشعرية منها في تطوير اللغة العربية الأدب العربي في شتى المجالات. وقد تناول الباحثون كثيرا من هذه الإنتاجات بالدراسة في النواحي المختلفة. فهذه الورقة، تهدف إلى النظر في الاستكشاف اللغوي عند الشاعر الشيخ محمد الناصر كبر في مختارات نصوصه الشعرية. ومعاملته اللغوية بالمفردات في الأنساق الأسلوبية والنقدية لخلق الإبداع والجمال في النصوص المختارة. ولتحقيق الهدف في هذه الورقة، فقد تمّ استخدام المنهجين التاريخي والوصفي لمعالجة موضوع الورقة. استخدم الباحثان المنهج التاريخي للكشف عن الخلفية التاريخية للشاعر معتمدَين على المصادر الأولية والثانوية، كما استخدما المنهج الوصفي في تحليل نصوص الشعر المختارة تحليلا أسلوبيا نقديا. والورقة تشمل بعد المقدمة، ثلاث مباحث مفصلة ثم الخاتمة التي تتضمن النتائج والاقتراحات والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الاستكشاف اللغوي، الأسلوبية، الدلالة، النقد، الشيخ

---

[١] قسم اللّغة العربيّة، كلّيّة الآداب، جامعة إلورن، نيجيريا ٢٣٤٨٠٣٣٠٦٣٥٤٩
salaty.aa@unilorin.edu.ng

٢ قسم اللّغة العربيّة، كلّيّة الآداب، جامعة إلورن، نيجيريا٢٣٤٨٠٣٢٦٦٧٨٥٠
yusuf.mb@unilorin.edu.ng

محمد الناصر كبر، المعجم الصوفي.

المقدمة

تشكّل المفردات جانبا مهمّا في تكوين التعبير الجيّد لاسيما في بناء القصيدة. وهي من الثروات التي يتزوّد الشاعر في إعداد نصه الشعري. فالشاعر الذي يتمتّع بالثروة اللغوية هو غنيّ المفردات، وترتفع درجته الفنية إذ كان ملمّا بدقائق اللغة وأسرارها وأساليبها حيث إنّه يتصرّف في استخدامها تصرّف الفنّان الماهر المتدقّق، فيضع كل كلمة في موضعها وقالبها المناسب لتبلغ الغاية الهادفة في إثراء التعبير شكلا ومضونا. وعلى هذا الأساس، يحاول الباحثان كشف اللثام عن استكشاف الشيخ محمد الناصر اللغوي في قول الشعر وكيف استطاع بتجربته الشعرية أن يوظّف قدرته اللغوية في استخدام مفردات اللغة العربيّة إلى حدّ بليغ. والورقة هذه مقسّمة بعد المقدّمة إلى ثلاثة مباحث، وفي كل مبحث فصول ثم الخاتمة التي تضمنت خلاصة البحث، ونتائجه والاقتراح والتوصية اللازمة.

المبحث الأول: ترجمة الشيخ محمد الناصر كبر

الفصل الأول: اسمه ومولده ونشأته

ولد محمّد الناصر كبر في شهر شوّال يوم الخميس سنة ١٣٣٤هـ الموافقة سنة ١٩١٣م بقرية غُرِنْغَاوَا؛ ضاحية من ضواحي مدينة كنو حيث تسكن أسرة والدته. ونشأ نشأة إسلاميّة صوفيّة تحت رعاية والديه لكن توفّي أبوه وهو لم يجاوز السادسة من العمر، فاعتنى بتربيته عمّه الشيخ إبراهيم ابن أحمد الشهير بـ"نَظُغُنِي" أي: المحتبِي، وهو صوفي زاهد ورع عالم اعترف به أهل بلده.[١]

[١] كبر، شيخ عثمان، الشعر الصوفي في نيجيريا، مكتبة النهار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة. ٢٠٠٤م: ص: ٢٢٩

الفصل الثاني: تعلّمه

لقي محمّد الناصر كبر عند مربّيه الشيخ إبراهيم اعتناء بالغا ساعده على تحصيل العلم والفوز بالمعيشة الطّيّبة حيث لبث تحت رعايته مدّة تقرب من ثلاث وعشرين عاما. ومن خلال هذه المدة، التحق بكتّاب الشيخ المقرئ محمّد غجَيْرِي الذي ختم تعلّم قراءة القرآن الكريم عنده وهو في العمر ابن تسعة مع أنّه يبدأ بالدرس عند مربّيه كلّ يوم قبل الاختلاف إلى الكتّاب. ثمّ تفرّغ للدراسات الإسلاميّة والعلوم العربيّة، وكان يدرس ثلاثين كتابا في كلّ يوم في مجالس العلماء وتتلمذ على طائفة من أعلام عصره منهم الشيخ إبراهيم نَظُغُنِي, والشيخ محمّد الثاني، والشيخ القاضي إبراهيم بن الأستاذ عثمان، والشيخ مَالَمْ عبد الكريم الملقّب بـ"سَابَوْ", والشيخ محمّد المجتبى الشنقيطي[١]

الفصل الثالث: تكوين شخصيته العلمية والشعرية

فقد ساعده الحظّ على جمع كثير في مختلِف الميادين العلميّة كما لبيئته الثّريّة -علما وثقافة- الأثر الملموس في تكوين شخصيّته العلميّة والدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة إضافة إلى خلفيّة أسرته الصوفيّة، وكثرة مطالعته، ورحلاته العلميّة التي فتحت له أبوابا كثيرة للاتّصال بأعلام العلم والدين. لم يزل يختلف محمّد النّاصر كبر إلى مجالس العلماء داخلا وخارجا حتّى توفّي معظمهم فانقطع لمهنة التدريس وخاض في عالم التّأليف والتصنيف وقول الشعر وهو ابن بضع وعشرين سنة. لم يتوقّف من هذه الحركة العلميّة حتّى ملأ المكتبات العلميّة بلآلئ إنتاجاته الأدبيّة التي تربو على المائتين[٢]، إلّا أنّ عدد مؤلّفاته التي هي في متناول اليد يربو على المائة.

---

[١] المتبولي، شيخ كبر، صور بيانية في شعر الشيخ محمد الناصر الكبري، شركة القدس، القاهرة، ٢٠١٣م ص:٥١-٥٤

٢ المرجع نفسه، ص: ٥٩

والحقيقة هي أنّه قد أسهم بجميع هذه الإنتاجات العلمية في تطوير العلم والأدب العربي الصوفي، لأنّ الأغلبيّة الساحقة منها هي في الموضوعات الصوفيّة شعرا ونثرا.

المبحث الثاني: مفهوم الاستكشاف اللغوي وظواهره

يراد بالاستكشاف اللغوي في هذا السياق توضيح وبيان قدرة الشاعر على توظيف مفردات اللغة العربية توظيفا ينبئ عن فهمه الدقيق لأساليب اللغة وأسرارها واستعمالاتها في مواضعها للكشف عن معانيها في نص من النصوص قصدا للجمال اللغوي والإبداع الأسلوبي. أضف إلى هذا، أنّ المفردات العربية ذات معان متعدّدة قبل استخدامها في الجملة. وبقدرة الشاعر على توظيف مفردات اللغة بمقاييسها مستعينا بالسياقات الدلاليّة، يتّضح المعنى المنشود في النص.

هذا الرأي أشبه شيء بقضية القاموس الشعري الذي حاول النقاد توضيحه وقالوا إنه هو الشاعر نفسه من حيث توظيف التعابير واستخدام المفردات والأسماء الرمزية والدلالات ولكونه يحمل بصمته التي تفرده عن بقية الشعراء، وإن الشاعر المتمكّن هو الذي يستغني عن المعاجم المتحددة الملامح، بل هو القادر على الابتكار وخلق الإبداع في كل حين من حيث إنّ لكلّ نصّ رؤية جديدة وموضوعا مختلفا[١].

نفهم من هذا أنّه لا فائدة في معنى يكمن في نفس الشاعر بدون اللفظ القادر على حمله ونفخ معناه في نفس المتلقي. فالشاعر المجيد هو الذي ينظر بخبرته الدقيقة في هذه الظاهرة ويختار من المفردات أحسنها وأدقّها وأقدرها على حمل المعاني التي تجيش في ضميره. ولأنّ المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي القروي والمدني والقاصي والداني، وإنّما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ

[١] علاء الدين، محمود، قاموس الشاعر: بصمة جديدة، صفحة الخليج معلومة مقتبسة عبر الإنترنت ٢٠٢٠م، https://www.alkhaleej.ac/2020-12-25/%D9 ص:٤

وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحّة الطبع وجودة السبك[١]. والشاعر المتمكن في توظيف مفردات اللغة يحاول حسن وضعه الكلمة في محلها وتنسيقها وتأليف بعضها ببعض لتؤدي المعنى المثير الجذاب في نص من النصوص. لأن البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني ويخيط الألفاظ على قدود المعاني[٢].

تنحصر ظواهر الاستكشاف اللغوي في دراسة المفردات حسب نظرية أحمد بدوي التي تقوم على مبادئ ناضجة تقتضي صحتها وقبولها وهي تتمثل في:

- الدقة
- الإيحاء
- الألفة
- الشاعرية
- التكرير
- الاصطلاحات

وتعتبر هذه الوحدات من المقاييس التي تستخدم في نقد المفردات للوقوف على جودتها اللغوية وميزتها الأسلوبية في نص من النصوص.

المبحث الثالث: دراسة ظواهر الاستكشاف اللغوي في شعر الشيخ محمد الناصر كبر

---

١ الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، شركة القدس للنشر والتوزيع، الطبعة ٣، ١٩٩٢م، ص:١٦٩

٢ القيرواني، أبو علي بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٢م، ص:١١٥

الفصل الأول: الدقة

معناها أن يختار الشاعر من الكلمات أدقّها في أداء المعنى الذي يجول في نفس، فقد تتقارب الكلمات من حي المعنى، ولكنّ بعضها أدلّ على إحساس الشاعر من بعض، والشاعر الموفّق هو الذي يهتدي إلى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عمّا يريد؛ لأنّ التمييز بين الألفاظ شديد. ومقياس الدقة هذا، كان من المقاييس التي بنى عليها النقاد قسما كبيرا من نقدهم[١]. فالدقة في الشعر مسألة حسّاسة لا ينتبه إليها كثير من الشعراء إلا المجيدون الموفقون الذين يعرفون أسرار العربية ودقائقها فيتصرفون في استعمالها ووضعها في قوالبها تصرف الحاذق الماهر. ولأنّ الكلمة إذا وردت غير دقيقة في أداء معناها كانت قلقة لم تقع موقعها، ولم تصل إلى قرارها، وإلى حقّها من أماكنها المقوّمة لها. وعلى الشاعر أن يختار كلمة لا تزيد على المعنى ولا تقصر عنه، بل تحيط به وتجلي عنه[٢].

وقد اهتدى الشيخ محمد الناصر كبر الصنهاجي إلى هذه القضية الأسلوبية النقدية في كثير من قصائده، فكان حسن الاختيار لكلمات تناسب المعاني التي تجيش في نفسه. وعلى سبيل المثال، استمع إليه يقول في بعض قصائده الاستغاثية:

مَـدَدْتُ يَـدِي إلـيـكَ لِـكَـيْ تـمُـدَّ يـديْـك نـحـوَ يَـدِي
لِـتُـنْـقِـذَنـي وتُـوصـلَـنِي إلـى مَـا فـيـه لـي رَشَـدي
فـكـيـف رُعِـيـتَ تَـتـرُكُـنِي ونـارُ الشـوقِ فـي كَـبِـدِي
وَلـم يَـعـلـمْ بـأنَّـكَ بِـي حَـفِـيٌّ نـاصـرٌ أَبَـدِي

---

١. بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٦م ص: ٤٥٢

٢ المرجع نفسه، ص: ٤٥٥

فـإنَّـك قـلـتَ تـنصـرُ مَـنْ يُـنَـادِي بِـاسْـمِـكَ الصَّـمَـدِ
فَـحَـيَّـهَـلَـنْ وَحـيَّـهَـلَـنْ لِـمَـنْ يَـدعُـوكَ فـي كَـبَـدِ
فـحـيَّـهـلـنْ وحـيَّـهـلـنْ لّـنـا يـا صـاحـبَ المَـدَدِ
مـددتُ يـدِي أنـا وجـمـيـعُ مَـنْ يَـهْـواكَ مِـنْ وَلـدِي
نـقـولُ هَـلُـمَّ يـا سـنـدِي هـلُـمَّ هـلُـمَّ يـا عُـدَدِي[1]

تغلّب على جوّ القصيدة معنى "المدد" الذي حفز الشاعر إلى الاستغاثة بالمولى العظيم. وفيه نلحظ الدقة في اختيار كلمة "مَدَّ" لشدّة علاقتها بـ"اليد" التي يبسطها الداعي المستغيث عند الابتهال والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى. فالدقة في اختيار اللفظ مثل "**مددْتُ**" شديدة الربط بمعنى اليد الأولى التي هي عضو من أعضاء الجسد بدلا من أن يقول: "بسطتُ يدي". وقد آثر الشاعر كلمة "مَدَّ" على "بَسَطَ" لأنّها أدقّ في التعبير والدلالة على المعنى ولجمال الأسلوب. وفي قوله: "**لكي تمدَّ يديك نحويدي**" في عجز البيت، استكشاف لغوي لدقة التعبير المتمثلة في كلمات "مددت، يدي، تمدّ، يديك". فالمعنى في كلّ من "**مددْتُ يدي**" في التعبير الأول يختلف عن التعبير الثاني في " **تمدَّ يديك** ". فمعنى كلمة "مددتُ" في الأول، بسطتُ، ويدي بمعنى اليد الآخذة، وفي "تمدّ" بمعنى التقوية والعون. يقال: مددتُه بمدد: قوّيتُه وأعنتُه به[2]. واليد الثانية للعطاء أي اليد المعطية، يقال: يَدِيَ فلانٌ: أولى وأعطى برّا ومعروفا[3]. واليد بمعنى النعمة والإحسان تصطنعهما، واليد: السلطان والقدرة والقوّة وجمعها

---

١ الكبري، محمد الناصر بن محمد المختار، نغمات الطار في حلقات الأذكار في الصباح والمساء والأسحار، مكتبة القاضي شريف بلا، كانو، ٢٠١٠م ص:٤٦-٤٧

٢ أنيس إبراهيم وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، المطبعة غير مذكورة، القاهرة، ١٩٧٢م، ص:٨٩٦

٣ المرجع نفسه، ص:١١٠٧

أَيْدٍ ويُدِيٌّ وأَيادٍ، و"اليد العليا خير من اليد السفلى" أي: المعطية خير من الآخذة[١].

ونرى الشيخ محمد الناصر كبر أيضا يراعي الدقة في استخدام الكلمات مثل "أَبُثّ" للشكوى، و"تَهِيجُ" للمدامع، و"وَجِيبٌ" للقلب في قوله:

لك اللهــمّ كنت أبــث شكــوى تــهيج لــها المدامــع والنحيـب

أبــثّ إليك مــا أشـــكو وقلبـي وجيــب والدمــوع لــها سكوب[٢]

ثبت في اللغة التعبير عن البث بالشكوى فتقول: أشكو بثّي، والبثّ هو أشدّ الحزن الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثّه، وهو أيضا المرض الشديد الذي لا يصبر عليه صاحبه[٣]. وإذا ورد فعلا كما في البيت "أَبُثُّ" فهو بمعنى الإظهار والإثارة والإظهار. يقال: بثَّ: فرّقه ونشره، وبثَّ الترابَ ونحوه: أثاره وهيّجه، وبثَّ الخبر: أذاعه، وبثَّ السيرَ: أفشاه وأظهره[٤]. وهَاجَ – تَهِيجُ المدامع: تغيَّمتْ المدامع، والمدامع جمع المدمع الذي هو مسيل الدمع ومجتمع الدمع في نواحي العين. والوجيب المستخدم صفة للقلب بفيد الاضطراب، يقال: وَجَبَ القلب وَجِيبًا ووَجَبَانًا: خفق واضطرب ورجف[٥].

الفصل الثاني: الإيحاء

هذا المقياس يعدّ من المقاييس الحساسة التي تغربل به الكلمة من منابع ثلاثة؛ تارة من طبيعتها الصوتية وأخرى من وضعها في التركيب وثالثة من مدلولها

---

١ المرجع نفسه، ص:١١٠٧

٢ الكبري، المرجع السابق، ص: ١١٤- ١١٥

٣ أنيس إبراهيم وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد، المرجع السابق، ص:٨٥

٤ المرجع السابق، ص:٨٥

٥ المرجع السابق، ص:١٠٥٥

اللغوي العام[١]. ومعنى الإيحاء إثارة الكلمة في النفس معاني كثيرة أحاطت بها مع مرور الزمن، حتى صار النطق بالكلمة مثيرا لهذه المعاني، وفي نفس سامعها، وإن لم تذكر قواميس اللغة هذه المعاني[٢]. وتدرك حقيقة الإيحاء في الكلمة قدرتها على التصوير بجرس حروفها للمعنى الذي تدلّ عليه، وإنّ مقدرة الشاعر على استخدام الكلمات الموحية دليل على ما يمتاز به من قوّة وإلهام[٣]. فأساس الإيحاء يقوم على قوة الإحساس اللغوي الذي يمتّع به الشاعر في حسن اختياره الكلمات الموحية المثيرة. وفي هذا، يقول بدوي:

> "وإنّ لدى الأديب إحساسا لغويّا ممتازا يستطيع به أن يختار من الألفاظ ما هو قويّ في تصويره، واضح في دلالته على مراده، ويدرك ما تستطيع الألفاظ أن توحي به إلى القارئ، وإنّ للألفاظ لوحيّا يشعّ منها فيملأ النفس شعورا، ويثير الوجدان، ويحرّك العاطفة، ذلك أنّ الألفاظ قد تراكم حولها بمضي الزمن والاستعمال، معان أخرى، أكثر من هذه الألفاظ التي نجدها في القاموس. والأديب البليغ هو من يستنفد ما للألفاظ من معان، أضفاها عليها الزمن، فتثير في النفس أعمق الإحساسات، وتملأ الخيال بشتّى الصور"[٤].

ومن هذا المنطلق، أدركنا أنّ الشيخ الكبري قد فطن إلى هذا المقياس الحساس فأحسن استخدامه في نصوص أشعاره مما أضاف إليها ألوانا من النغمة الصوتية الموسيقية ومن جمال الوضع في التركيب والإبداع اللغوي. ومن الكلمات

---

[١] عبادة، السعيد السيد، نشأة النقد الأدبي عند العرب، ٢٠٠٧م، ص:١٦٤

[٢] بدوي، أحمد أحمد، المرجع السابق، ص:٤٥٥

[٣] المرجع السابق، ص:٤٥٧

[٤] بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص:١١-١٢

الموحية المثيرة في نفس السامع معاني كثيرة، كلمات مثل: "الأب" "الوليد" "الأحواس" "النسب" المستخدمة في أشهر قصائده في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به. استمع إليه يقول:

يـا رســـول اللهِ خُـذْ بِيَـدِى وتـداركـنـي فَـأَنْـتَ أَبِـي
أَنْـتَ يَـا مُخْتَـارُ مُسْـتَنَـدِى وَإِلَـيْـكَ الْـيَـوْمَ مُـنْـقَـلَـبِي
أَدَّعِـي أَنِّـي وَلِـيـدُكُـمُ فَعَسَـى تَرْضَـوْنَ مُنْتَسَـبِي
إِنْ أَكُنْ سَـلْـمَـانَ بَيْـتِكُمُ كَانَتِ الْأَحْـــوَاسُ فِـــي

وبمجرّد قراءة البيت الذي وردت فيه كلمة "الأب" يتبادر إلى ذهن القارئ قوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين وكان بكلّ شيء عليما﴾[١] حيث أثبت الله سبحانه تعالى عدم إطلاق الأب على نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم، لكن الشاعر آثر الإيحاء باستخدامه هذه الكلمة لما فيها من معنى له أثر في تعبير الجملة. فكلمة "الأب" في اللغة، تطلق على صاحب الشيء وعلى من كان سببا في إيجاد شيء أو ظهوره أو إصلاحه[٢]. أوليس نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم سببا لوجودنا وصلاحنا؟ ومن بين الكلمات "الوليد" "الأحواس" "النسب" صلة قوية في المعنى. ادّعى الشاعر أنه من سلالة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم مع أنّه من قبيلة الأحواس وهي معرّبة من كلمة محلّية هي الهَوْسَا. والذي يتتبّع خلفية الشاعر التاريخية يدرك أنه يتصل نسبه بسيدنا الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، وكما يتصل نسبه من جهة والدة جده العاشر كبر فَرْمَ علو بسيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري

---

[١] الأحزاب: ٤٠

[٢] أنيس إبراهيم وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد، المرجع السابق، ص:٢٤

الصحابي المعروف[١]. ومن هذا نفهم أنّ بينه وبين الممدوح قرابة دموية، لذلك آثر كلمة النسب على الحسب التي تعني ما يعدّه المرء من مناقبه أو شرف آبائه[٢].

الفصل الثالث: الألفة

هي تجنّب الألفاظ الغريبة الوحشيّة في الكلام، واستجابة السامع للشاعر سريعة لا يحول بينهما أن تكون الكلمة غير واضحة المعنى، تحتاج إلى بحث وتنقيب ليفهم السامع ماذا يريد الشاعر أن يقول[٣]. إن استخدام الكلمة المألوفة في نص الشعر مما يجذب انتباه السامع ويجعله يتفاعل مع الشاعر في معاني شعره لأنه أقرب إلى القلوب وألذ للأسماع. وقد سئل الشاعر الحميري "ما لك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ فقال: لأن أقول شعرا قريبا من القلوب، يلذه من يسمعه خير من أن أقول شيئا متعقّدا تضلّ فيه الأوهام"[٤]. ففي الأبيات التالية، يرى القارئ واضحا كيف استخدم الشاعر الكبري الألفاظ الأليفة للقلوب وفقا لطبيعة ما يتحدث عنه وهو حقيقة القلب. يقول:

القلب أنفس شـيء أنـت مالكه فاحرسه علّك يوما تسكن الغابا

القلـب بيت تجـلّى فـيه خالـقه فكن على الباب حجّابـا وبـوّابـا

---

[١] المتبولي، شيخ كبر، المرجع السابق، ص:٤٦

[٢] أنيس إبراهيم وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله أحمد، المرجع السابق،ص:١٩٣

[٣] بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص:٤٥٨

[٤] الأصفهاني، ص:٢٤٨

وكن غيورا على مولاك لا تدعن إلا بإذنك غيرا يقرع البابا[١]

ونرى الشيخ محمد الناصر في هذه الأبيات يلجأ إلى الألفة في اختيار الكلمات قصدا لتقريب معاني النص ولجمال الأسلوب. يصف حالة المريد السالك في الاكتراث بصفاء القلب والحفاظ عليه لأنه الجوهر الذي يقتضي صلاحية العبد عند ربّه. وإذا صفا وصلح فقد سلم الجسد من الدناءات والآفات المادية والمعنوية. ولا يكاد القارئ يتعب نفسه قبل الوصول إلى المعنى المنشود في الأبيات. فقد استخدم الكلمات مثل "أنفس، مالك، احرس، تجلّى، حجّاب، بوّاب، غيور، يقرع" لشدة دلالتها على معنى النص وهي مألوفة يلذ وقعها في السمع ويقرب معناها من ذهن السامع.

الفصل الرابع: الشاعريّة

هي حسن استخدام الشاعر أسماء الأماكن في ثنايا الشعر والتي يثير ذكريات طيبة في نفوس القرّاء والسامعين. من هذه الكلمات ما هي شعرية وغيرها، وعلى الشاعر حسن استخدامها لإبراز جمال اللغة والشعر والأسلوب. والمستحسن ألّا تقف معاني هذه الكلمات عند الشاعر فحسب، لأنها أسماء شاعرية موحية[٢].

والشيخ محمد الناصر كبر شاعر خبير بأساليب الشعر وقوالبه ويتصرّف في حسن استخدام أسماء الأماكن استخداما ينبئ عن شاعريّته لأنّها أسماء ذات معان روحيّة لا في نفس الشاعر فحسب بل في القارئ على الإطلاق كما في استخدام الشاعر كلمتي كنو؛ مدينة الشاعر الغنية والمليئة بالعلماء وأولياء الله الصالحين، وصكتو؛ مدينة الشيخ عثمان بن فودي المجدد الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي في نيجيريا عموما. ولأنّه في جوّ القصيدة ينوّه بشخصيّة الشيخ عثمان بن فودي الروحيّة

---

[١] الكبري، المرجع السابق، ص:٩٣-٩٤

[٢] بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص:٤٦٣

وهو يقول:

جمعْتُ هوائي فِيك بعد انتشــارِهِ وذكّرني مَعنَـاكُمُ كـلَّ صُــكُّتِي
أتيتُ إلى عثمانَ من أرضِــنا كَنُو عَسَـى ولعلَّ اللهَ يقضِـي لُبَانتِي
وحـقِّ الـهَـوَى أنّي بـربّيَ مـؤمـنٌ وبـالمُصــطفَى والشــيخِ عثمـانَ
أَقـولُ وَقَـدْ طـالَ الهَوَى متـرقّبـا أَعـثـمـانُ هَـلْ مِـن نَـفْـحـةٍ

وليس في هذه الأبيات فقط يورد الشاعر أسماء الأماكن ويتصرف في استخدامها تصرّفا حرا ماهرا، إنما تعوّد فعل ذلك غالبا عند الاستغاثات والتوسلات حيث تنبض تلك الأسماء بعان ذات شاعرية موحية وتلفت أنظار القرّاء إلى جمال اللغة والأسلوب والشعر. وهو في إحدى توسّلاته يقول:

بـالوافـدينِ إِلَيـك مِن نيجيريَـا خمســينَ ألفًـا في رجـاءٍ صــلاحِ
بـالوافـدينَ إِلَيْكُم مِن ليبيَـا قصــــدُ الإلـهِ المـانـحِ الـفـتـاحِ
وَلَكَمْ أَجابَكَ ربِّ يُوغسـلافيَا يـرجـونَ فـيـضَ المـانـحِ المـنـاحِ
إيرانُ هندُ الســندُ إندونيســيَا أفغـانِ فيلبين ذاتِ ســمـاحِ
الصــينُ باكســتانُ مع ماليزيَا كـلٌّ أُتـي لـنـدائِـكِ الـفـراحِ
سـيلانُ سـنغافورُ مع كَمبوديَا تـيـلانـدُ مـع نـيـبـالِ لـلإفـلاحِ[1]

الفصل الخامس: التكرير

التكرير أو التكرار ظاهرة من الظواهر الأسلوبيّة والنقدية التي تعتني بخلق الإبداع والجمال في التعبير. ولا يصح للشاعر أن يكرر اسما إلا على جهة التشوّق والاستعذاب[2]. يتميّز شعر الشيخ محمد الناصر كبر بهذه الظاهرة الأسلوبية وترد

[1] المرجع نفسه، ص: ٧٨

[2] بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص:٤٦٦

كثيرا في جلّ قصائده في صورة تكرار الصوت والكلمة والجملة. أمّا الذي يهمّنا في هذا الصدد هو تكرار الكلمة أو اللفظ. فقد كرر كلمة "البلد" في مدحه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم تكرارا يفيد التقرير والتشويق حيث يقول:

نَفْـرِي المهامــة والقِفَــار لِكَـي بَلَــدَ النَّبِــيّ الأَبطَحِــيّ مُحَمَّــدِ
بَلَــدٌ بِــهِ أَقــدامُ خَيْـرِ الأَنْبِيَــا بَلَــدٌ بِــهِ دَارُ الحَبِيــبِ مُحَمّــدِ
بَلَــدٌ بِــهِ نُــورُ الهُــدَى مُتَلَأْلِـئ بَلَــدٌ بِــهِ نُــورُ النَّبِــي مُحَمَّــدِ
بَلَــدٌ بِــهِ نــورُ النُّبــوةِ لَامِــعٌ بلــدٌ بِــهِ ذاتِ النَّبــي مُحَمَّــدِ
بَلَــدٌ بِــهِ نــورُ الرِّسَــالةِ ســاطعٌ بلَــدٌ بِــهِ يُــوحَى لِهَــذا الســيدِ
بَلَــدٌ بِــهِ أَقــدامُ خَيْـرِ الأَنْبِيَــا بَلَــدٌ بِــهِ دَارُ الحَبِيــبِ مُحَمــدِ
بَلَــدٌ بِــهِ نُــورُ الهُــدَى مُتَلَأْلِـئ بَلَــدٌ بِــهِ نُــورُ النَّبِــي مُحَمَّــدِ
بَلَــدٌ بِــهِ بُسِــقتْ شَــمَارِيخُ بَلَــدٌ بِــهِ ظَهَــرتْ مَعَــاجِزُ أَحْمــد
بَلَــدٌ بِــهِ جَلَــتْ مَغَــاطِيسَ بَلَــدٌ بِــهِ جِسْــمُ النَّبِــي مُحمــدِ[1]

يُرَى الشاعر في تلك الأبيات كيف كرّر كلمة "بلد" مرّات تكرارا ملحوظا فهي عبارة عن مكّة المكرمة ومصداقها قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾[2] وقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[3] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾[4]. هذا التكرار الملحوظ استخدمه الشاعر في تلك الأبيات المدحية وأضاف إلى التعبير التشويق والتقرير والتقوية للمعاني الصوريّة التي

[1] الكبري، المرجع السابق، ص:٢٠١

[2] التين:١-٣

[3] البلد:١-٢

[4] إبراهيم: ٣٦

تدل على شدّة حنينه لزيارة البيت الحرام كما أنّ التكرار في صيغة نكرتها تقوية للنغم الموسيقي لما في الكلمة من تنوين *Nunation* من ميزته الصوتيّة أن يضيف إلى ترنّم الكلمة ورنّتها. هذا بالإضافة إلى قلقلة الباء والدال وليونة اللام. ويبدو أنّ الكلمة كانت في غاية من الترنم الموسيقي حيث إنّها بتنوينها تميل كثيرا إلى المماثلة الصوتيّة *Assimilation* نظرا للباء التي تليه في مثل "بَلَدٌ بِـ" لأنّ التنوين حينئذ يصير ميما ساكنا مثلا: "بَ/لَ/دُمْ/ بِـ" للتشابه الصوتي بين الباء وبين الميم إذ هما صوتان شفويّان *Bilabial Sounds*.

الفصل السادس: الاصطلاحات

هي إدخال الشعراء ألفاظ المتكلّمين وألفاظ المتصوفة وتعبيراتهم في أشعارهم، ويورون بالمصطلحات النحويّة حتّى ثبت أنّ ابن مالك صاحب الألفية الشهيرة رثي بقصيدة استخدمت فيها الاصطلاحات النحوية وعدّت من أجمل المراثي التي قيلت في نحو، ومن القصيدة قول الشاعر:

يا شـتات الأسـماء والأفـعـال بعد مـوت ابـن مـالك المفضال

وانحراف الحروف من بعد ضبط منه فـي الانفـصال والاتّـصال[١]

وقد استخدم الشيخ محمد الناصر كبر بعض اصطلاحات نحوية في التعبير عن تمام خضوع المريد السالك لقضاء الله واستسلامه لأوامره حيث يقول:

ابنـنا ربّ بـناء محـكما إنّنا يـا ربّ أصـل في البـنا

[١] السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية الكبرى، ص:٢٨

نحن حرف فاحكمن ما شئت من فتحـــنا أو كســـرنا أو ضـــمّنا

فتحَـــــك اللّهـمّ نـرجـــو وإذا جـــدتّ بالكسر فهـــذا جبـــرنـا

وإذا جـــــدتَّ بـــضـــمّ بعـــده فلك الشـــكر حبيـــبا ضـــمّـــنا

وإذا سـكّنتَـــنا مـــــن بـعـــد ذا فكـــما سكّنـــتَـــنا حرّكـــتَـــــنا

نحن حـــرف يفعل المولـى بـــنا مـــا يـــشا من رفعـــــنا أو ضمِّنا[١]

فاستخدم الاصطلاحات مثل: البناء، الحرف، الفتح، الكسر، الضمّ، السكون، الحركة. ولكلّ منها دلالة خاصة بالمعنى المراد لدى الشاعر والواقع فعلا أن تؤثّر هذه الاصطلاحات المستخدم في القارئ والسامع. وهي أسلوب طريف لدى الشاعر لجذب انتباه القراء وتوصيل معاني شعره في نفوسهم بطربق غير مباشر، ولا يقدر على هذا إلا من له إلمام تامّ بأساليب اللغة ودقائقها. ونشير في هذا الصدد إلى أنّ الشيخ محمد الناصر كبر مع العلم أن شعره يصطبغ كثيرا بالصبغة الصوفية، فإنه مع ذلك يملأ شعره بالاصطلاحات الصوفية وغالبا في مدائحه وتوسلاته بالحبيب المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فنراه يستخدم الكلمات مثل "مجمع البحرين، الكنز المخفي، البرزخ، الطلسم، طلسم الأسرار الكيمياء". هذه الكلمات لا تبدو صيغها إلا وتدل دلالة واضحة على المعاني الصوفية التي لا تدرك حقيقتها في المعاجم اللغوية المألوفة بل في المعاجم الصوفية المعترف بها والتي تستمد أصالتها من الكتاب والسنة النبوية المطهّرة. استمع إليه يقول: في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم:

أحمـد المختـار ســيـدنـا خـيـر خـلـق الله في الـرتـب

ســيـد الكونين أجمع من ذكـره مـن أعـظـم الـقـرب

---

[١] الكبري، محمد الناصر بن محمد المختار، سبحات الأنوار من سحبات الأسرار، جمعه ودوّنه الحاج يوسف بن الشيخ عبد الله، كانو، غير مؤرخ، ص:١٥٤

مجمع البحرين برزخه كنزك المخفى أبو العجب
طلسم الأسرار منبعها قبضة الأنوار جدّ أبي[١]

ويقول في إحدى توسّلاته:

وتجلْ لي بالكيمياءِ وخُصَّني بذخيرِكِ الخافي على الطّمّاحِ
يا أحمدُ المختارُ أنتَ الكيميَا وأنا فقيرُك فاستمعْ لنياحِ[٢]

أما مجمع البحرين في الاصطلاحات الصوفية فيعني ملتقى العالَمَين؛ عالم الروح وعالم الجسد وهما العذب والأجاج في صورة الإنسانية ومقام القلب. والبرزخ في الاصطلاح الصوفي، هو بتعبير ابن عربي، العالم المشهود بين عالم المعاني والأجسام. والكنز المخفي هو الهويّة الأحدية المكنونة في الغيب وهو أبطن كل باطن[٤٥]. والطلسم كلمة أعجمية يستعملها العرب بمعنى الخفاء والكتم، وعند ابن العربي يقول: إنّ الإنسان هو طلسم العالم أي: سر العالم. ويضيف قائلا: إنّ الإنسان نفسه هو الطلسم الأعظم والقربان الأكرم الجامع لخصائص العالم، فهو قربة إلى مكوكب الكواكب سبحانه، ومن أجل هذا الطلسم خدمته الكواكب. ولمّا كان الرسول قد جاء يحلّ هذا الطلسم الأعظم الذي جعل الله العالم ممسوكا به ولأجله، جعله مغناطيسا للعالم. والكيمياء في البيتين السابقين تعني – في الاصطلاح الصوفي - القناعة بالموجود وترك التشوق إلى المفقود. وقد استطاع الشاعر بهذه الاصطلاحات أن يعبر بها عن الحقيقة المحمّدية يزينها شيء من البعد في النظر والعمق في المعنى.

الخاتمة

قد استطاع الباحثان في هذه السطور أن يسلطا الضوء على مفهوم

---

[١] الكبري، نغمات الطار في حلقات الأذكار في الصباح والمساء والأسحار، ص:

[٢] نفس المرجع ، ص:١٥٤-١٥٥

الاستكشاف اللغوي وأساليبه وظواهره حسب ما ورد في نصوص الشيخ محمد الناصر كبر الشعرية المختارة للدراسة في هذه الورقة. كما نظر الباحثان في مدى قدرة الشاعر على توظيف مفردات اللغة، وفي الأساليب التي سلكها في اختيار الألفاظ الدقيقة الموحية لتناسب المعاني المنشودة ودراستها دراسة أسلوبيّة نقديّة، وكيف استطاع أن يثير أحاسيس القرّاء في تلك النصوص الشعرية المختارة.

ومن خلال ما درسه الباحثان في هذه الورقة، توصلا إلى النتائج التالية:

- وُفّق الشيخ محمد الناصر كبر في الاستكشاف اللغوي المتمثل في الدقة، والإيحاء، والألفة، والشاعريّة والتكرير، والاصطلاحات في نصوص شعره المختارة؛
- وظّف الشاعر تلك الظواهر الأسلوبية النقدية لإبراز قدرته اللغوية التي ساعدت على خلق الإبداع اللغوي والجمال الأسلوبي؛
- اصطبغ الشاعر بهذه الظواهر في أبيات النصوص الشعرية المدروسة بصبغة الحيويّة، وبها استطاع أن يثير بها أحاسيس القرّاء، ويجذب انتباههم في شيء في دقّة الألفاظ وإيحاءها، ووضوح المعاني، وعمق الأفكار واستيعابها.